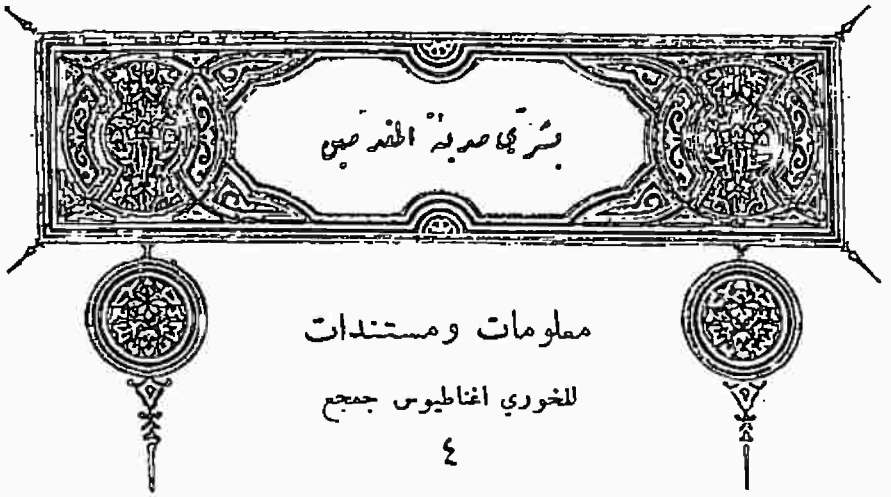

معلومات ومستندات

للخوري اغناطيوس جمجم

٤

بعض حوادث تاريخية

قصة حمامة

ما حمامة هذه الا جميلة « جميلة تحت الارز » . هي ابنة صوما حنوش كيروز فاقت اقرانها جمالاً وتهذيباً ، فكثر طلابها . وقضت الظروف فتزوجت برجل من دير الاحمر قد شغف بها وابعدها عن ابن عمها طالبها . فجالما كان سبب تعاستها حتى اضحى رجلها يتشكى عليها . وقد حملته غيرته على اتهامها بانها تحب متوالياً . وكان يتخيل له ان الطير يحمل اليها رسالة المتوالي ، فابغضها بغضاً شديداً وشكاها لاهلها . فلا دفاعها ولا حلفها اقنع والديها انها بعيدة عن ذلك ، وانها نصرانية محافظة على شرفها وشرف اهلها . ثم مضت عدة ايام على ذلك والسلام سائد . وبينما كان اهلها مجتمعين في بشوات جاءهم رجلها باكياً قائلاً ان حمامة رامت ذبحه تخلصاً منه ، وابان لهم جرحاً في خده لانه قال بينما كانت تحلق له صوّبت الموسى الى عنقه . ففار دم اهلها ودعوها ، ثم اوقفوها على رجمة واحاطوا بها مسلحين بالبواريد . فوبخوها واهانوها وصوّبوا البواريد نحوها . فكانت تتلوى يميناً وشمالاً ، دموعها سائلة ووجهها مصفرّ . فلا دموعها ولا جمالها ولا عمرها ولا رجاها حنّن قلوبهم . وما كان من الاب الا ان بدأ باطلاق الرصاص عليها ، ثم اخوتها ، ثم اولاد عمها . وما زالوا يرمونها حتى فاضت روحها فطمروها بالرجمة التي لم تزل تسمى باسمها . وبعد مدة جاء رجلها وتشكى

عليهم، فاضطروا لدفع مال كثير تسكيناً له وقالوا قد استعجلنا . . . حقًّا ان في العجلة ندامة . وما من احد يطالع هذه القصة الا ويحنق على والدي حامية واهلها ناسباً اليهم قساوة بربرية متمنياً لهم كل شر. على اننا نشير عليه ان يضع ذاته في ذلك العصر، عصر الهمجية والسذاجة والاندفاع، عصر الانفس الابية، فيعذر . وليعلم ان العادة كانت كشريعة منزلة تأمر بقتل الزاني والزانية.

موقعة وادي الجماجم

سنة ١٨٥٨، سلب رجال الضنية بيت عزيزة، معاز بشراوي، واخذوا منتي رأس ماعز . فذهب سبعون رجلًا من بشري الى وادي الجماجم، ونهبوا ثلاثة رؤوس خيل، وخمسمائة راس غنم، وطردوا العرب واهل الضنية، ورجعوا غانمين. وبينما هم في الطريق اذ احاط بهم العرب واهل الضنية، فتركوا ما سلبوه بيد اسحق شبله وكان رجل بأس. واخذوا يصادمون العدو مدة سبع ساعات. وبينما هم في هذه الحالة، حضر من دير الاحمر عدد من اهالي بشري على رأسهم يوسف لحود قمر جعجع، وباغتوا العدو وطردوه. وخلصوا الغنم ورجعوا ظافرين.

وسنة ١٨٥٩ سرق اهالي عكار اربعمئة راس ماعز . فهاج اهل بشري وتتبعوا السارقين، ونهبوا سبع مئة رأس غنم ومئتي رأس بقر وبغال . ورجعوا ظافرين بعد ان ردوا العرب واهل عكار الى الوراء.

مقتل احد بكوات عكار

قتل هذا البك رجلًا من بشري، وهو في عكار، فطلب اهل بشري واستعدوا لاخذ الثأر . فتقدم حبيب ملكون وتكفل لهم قائلًا : اني ملتزم باخذ الثأر، لان المقتول نسيبي . واتكفل لكم بذلك. فاجتمع الزعماء وقرروا ذهابه. فاعطاه الشيخ جبرائيل ابي رعد جعجع مسدساً مجشوًّا وقال له: «اذهب ولك فرصة ثمانية ايام . وان ما رجعت في هذه المدة نتبعك» فودعهم قائلًا : «اني اكون عندكم في النهار الثامن» ثم توجه الى عكار وراقب البك المطلوب. وكان هذا البك ينام في عرزان (اي خيمة فيها سرير بين شجرتين) فتسلق اليه

وافرغ في بطنه المسدس فارداه قتيلاً . وفي النهار الثامن وصل الى بشري.

شر اهدن وبشري

في ايام الزيتون ، في الساحل ، سنة ١٨٥٦ ، في اول كانون الاول ، تخاصم لحود شيبان من بشري ، وحرمة من زغرتا . فاهانه المدانة . فبلغ الخبر بشري ، فذهبت الرجال الى اهدن فوجدوها خالية خاوية فانحدروا الى ايطو ، قاصدين زغرتا. وبينما هم هناك ، صمد يوسف بك كرم مع رجاله الى اهدن محافظة عليها ، فرجع اهالي بشري من ايطو الى عين بقرة ، وانقسموا فرقتين قاد احداهما حنا سمد جبران والاخرى اسحق لحود جمجم . فتوجه اسحق لحود الى عين الوحش ، غربي اهدن ، وقتل هدئانياً. اما حنا سمد فهجم على جسر اهدن ، فصادمته المدانة ، وصار الشر في سهل بقوزا ، ودام الى المساء . وكان السلاح عصياً وحجارة . فلم يُصب احد الا ببعض جروح. فتدخل ارجه البلاد لمصالحة الخصمين ، وعينوا سرعل محلاً للمواجهة . فحضر زعيم بشري بطرس بك حنا الضاهر ، وزعيم اهدن يوسف بك كرم . وكان كل واحد منهما يطلب حضور الآخر اليه ، والفاصل بينهما كان عشرين قدماً ، فانفصلا ، وانقلبا مملوءين شراً.

وبعد مدة حضر من بعلبك البشراويون بقيادة طنوس منيانس . وتوجه الرجال الى البقلة ، الحد الفاصل بين اراضي اهدن وبشري ، وهناك صارت مناوشة بين بعض الرجال من الطرفين . فاشتد الخصام ، وطرح الصوت ، فاتت المدانة وعلق الشر . فردت اهالي بشري المدانة الى الوراء . فحضر يوسف بك بنجدة مع ذخرة حربية وقال للمدانة بلهجة قوية : « اما الثبات والانتصار ، واما تركككم نساءكم واموالكم وذهابكم الى البحر » ثم تقدم وهجم امامهم ، فارتدوا الى الحرب . وطال اطلاق الرصاص بين الفريقين ، حتى وقف من جهة البشراويين لان الذخيرة نفدت منهم . فلما ادرك رجال اهدن ان البشراويين توقفوا عن اطلاق الرصاص ، توقفوا هم ايضاً وتبعوهم الى البقلة . فهناك هبطت ضبابة قوية فحجبت الفريقين . فرجع رجال اهدن فرحين ظافرين ورجال بشري لائمين زعيمهم بطرس بك حنا الضاهر لانه لم يرسل اليهم الذخيرة.

ودامت المداوة بين الطرفين وقطع اهالي بشري الماء عن ارض اهدت في بقوفا.

ثم في سنة ١٨٥٧ دبّت المداوة في بشري بين فريقين، فانحاز فريق منهم الى يوسف بك كرم سرًّا، وكانوا يخابرونه بكل ما يجري في بشري. وفي ٢٩ تموز من السنة نفسها، اعلموا يوسف بك ان بشري خالية من الرجال. فاهل بطبك رجعت الى اراضيهم، ورجال بشري في حقولهم. فاتى يوسف بك الى مار تادروس، غربي شمالي بشري، وارسل بطرس توما مع بعض رجاله الى الحريم فوجد هناك يوسف بلنكا من بشري فمنعه عن الدخول. فارسل البك ثلاثين نفرًا الى الوادي ليدخلوا بشري على بغتة من اسفلها. ولما وصلوا الى مار الياس، اسفل بشري، وجدوا حنا حنوش فرمى رجلًا منهم اسمه مخائيل الراهب فوقع قتيلًا، فتركوه ودخلوا البلدة. ولما وصلوا الى بيت الحكيم، وجدوا اسحق الحكيم صاعدًا على سلّم بيته فقتلوه بدل قتيلهم. ولما وصلوا الى ساحة مار سابا صادفهم توما سمور ورمى رجلًا منهم فسقط على الارض. فصعدوا الى الحارة الفوقا واخذوا بنهب حارة بيت الفخري. فجاءهم موسى خوري يعقوب. ورمى مخائيل السيدة من اهدن. وكان بشير غصيبه في مارسركيس مع اهله وذويه، فلما سمعوا بالخبر رجعوا الى بشري للمدافعة، فسبقهم بطرس غصيبه وتتبع المدانة خارجين من البلدة، فلك رجلًا منهم قرب طاحون شحاده ومدّه وابتدأ يذبحه، فقال له: «انا دخيل مريم انا في حمايتها فاعف عني.» فقال له: «عفوت اكراماً لمريم العذراء». ثم تقدم الى سيدة النور فوجد ابن عمه ظاهر غصيبه قاتلًا هدنانيًا. فاعلمه بعفوه، فلامه على ذلك. وفي مرورهم بالحرزمانة حرقوا خمّي قرّ احدهما الخوري مبارك كيروز، والآخر الخوري جبرائيل جمجم. وبذلك اخذوا ثأرهم من بشري.

ولما وصلوا الى يوسف بك كرم واخبروه بما جرى وبّخهم وشتمهم قائلًا لهم: «انتم كلاب وقائدكم سبع، واهل بشري سباع وقائدهم كلب.» فقالوا له: «اننا عند سيدة النور نظرنا حرمة متوشحة بثوب ابيض يتقدمها فارسان احدهما سالًا سيفه والآخر مشرعاً سنان رمحه، فاخذتنا الرعبة».

فرجع الى اهدن مع رجاله . ولبث الخصام بينهما يزداد يوماً عن يوم باغانيهم . فرجال اهدن تقول :

يا بارود الفيماني والتوك من القداحه
الله يشيد يوسف بك دقّ البوري بالساحه

ورجال بشري يترغون :

يا بارود الفيماني والتوك من القداحه
الله يشيد بشري خلوا بقوفا بلا فلاحه

وبعد مدة حضر سيادة المطران يوسف جمجم من قرنة شهوان وجمع اوجه البلدتين في بقوفا ، واصلحهم بعد ان خطب فيهم خطاباً نفيساً .

اختلاف البشراويين

ذكر الدبس في تاريخه (عدد ١٩) :

« في سنة ١٧٦٤ تولى الحكم اولاد الامير يوسف . وكانوا يتناوبون جبة بشري فمنهم من كان يولي مشايخ بيت عيسى الخوري ، ومنهم من كان يولي مشايخ بيت حنا الضاهر . فاشتد الانقسام وظهر لكل خصم مساعد فترك بيت عيسى الخوري بشري وذهبوا الى مزيارة . وطال الامر عليهم ، وخصمهم قدير ، وقد استبد في حكمه . فدبت النخوة في بيت جمجم فذهبوا واتوا بعيسى الخوري الى بشري . فلما نظر ذلك حنا ضاهر ارسل واعلم ابن الامير يوسف . وهذا بعث اربعين خيالاً للقبض على عيسى الخوري نفياً له من بشري . وكان لعيسى الخوري امرأة فاضلة قادرة متقدة بالفطنة والذكاء . فاستقبلت الخيالة بوجه بشوش واكرمتهم باحسن معاملة . فكانت يومياً تقدم لهم ذبيحة واكلاً فاخراً ولم تتركهم يحتاجون لشيء . فمضت مدة على ذلك والخيالة لا تنظر الشيخ عيسى الخوري . فملوا من الاقامة وسألوا عنه فاجابتهم ان عيسى مريض جداً لا يمكنه الحراك . ولو كان في حالة الصحة لاحسن استقبالهم وزاد في اكرامهم . ثم اعطت كل خيال قيصاً من حرير مع عشرة غوازي من ذهب . ففرحوا بذلك وكتبوا للامير ان الشيخ عيسى لم يتمكنوا منه لانه مريض . فاتاهم الجواب بترك المحل . فاخبروا امرأة الشيخ ووعدوها ان الامير صفح عنه . »

ومن ذلك الوقت مكث حكّاماً في بشري بيت عيسى الخوري وبيت حنا الضاهر وكل منهما حكم مقاطعة كما كان ذلك على عهد المتاولة.

بعض التقاليد في بشري

نبع قاديشا

من تقاليدهم في نبع قاديشا انه كان تحت النبع عين ماء لا يدع صاحبها احدًا يشرب الا بعد ان يستوفي ثمن الشربة. فحضرت يوماً حرمة، وعلى يدها ولد يصرخ قائلًا: «انا عطشان يا اماه.» فطلبت ان تسقيه فلم يمكنها من ذلك صاحب العين. فاخذت الام منديلها عن رأسها ورمته في العين لترطب بمصيره شفتي ولدها العطشان. فما كان من هذا الرجل القاسي الا انه خطف المنديل وعصره جيدًا وسلمه الى الوالدة. فتوارت عنه حزينة. ولما بعدت انفجر النبع، وجرف الرجل مع بيته وامواله. فلذلك سمي نبع قاديشا، لانهم يعتقدون كل الاعتقاد ان هذه الحرمة هي مريم العذراء والطفل هو يسوع المسيح.

نبع مار سمعان

هذا النبع المشتهر ببرودة مياهه العذبة هو حياة لاملاك بشري وما يجاورها كحدشيت، وبلوزة، وبان، ومشمشية، وعين البقرة، والوادي، ودير قنوبين، وبعض اراضي بقوفا وكفرصفاب. جفّ هذا النبع سنة ١٤٧٨ فتضايقت الاهالي. وكان في ذلك الزمان رجل القداسة وعمال المجائب القديس سمعان الطاموري قرب انطاكية. فارسلوا اليه طالبين منه النبع. فرجع المرسلون وقالوا: «قال لنا عليكم ان تصمدوا الى باب النبع مدة ثمانية ايام وكل يوم يتلى القداس على بابه وبعد الذبيحة يرمي الكاهن بحصة» ففعلوا بامانة عظيمة. وفي النهار الثامن انفجر النبع كما هو الآن فسموه بنبع مار سمعان. واكراماً له خصصوا كل سنة صوم تسعة ايام قبل ظهور الاعجوبة، ونهار العيد كانوا يتركون المياه تجري لا يسقي احد منها.

الارز

اعتقاد اهل بشري فيه انه غرسة الرب تبعاً لقول النبي داود (مزمور ١٠٣): « اشجار الرب ارز لبنان التي غرسها هناك تعشش العصافير . » فلذلك اطلقوا عليه اسم « الارز المقدس » في جبل لبنان . ثم انهم يعتقدون ان تحت الارز ٣٦٦ مذبحاً يقام القداس عليها ليلاً ونهاراً.

وهم يحرمون من اخذ منه حطباً ، والويل له . يقولون ان معمازاً احتطب منه واوقد النار تحت حلة الحليب فصار الحليب دماً ، وان رجلاً حمل حماره حطباً منه فوصل لطرف الارز ووقف الحمار رغماً من ان الرجل كان يضربه ، ولما ترك الحمل ذهب مسرعاً . وكذلك يمنعون اختلاط النساء والرجال على غصن واحد ، فمتى اختلطوا كسر الغصن حالاً . واكراماً للارز كرسوا كل شهر مريم لزيارته فكانوا يتوجهون منهم مكشوفو الرأس ، ومنهم حفاة ، ومنهم في ايديهم المسابح منشدين الاناشيد للارز المقدس.

ولنترك الكلام للاستاذ فؤاد البستاني ، على اثر زيارته الارز سنة ١٩٢٩.

« اشجار الرب ارز لبنان التي غرسها » (المزمور ١٠٣ : ١٦)

« يقطع المسافر مناطق لبنان الشمالي ، غير عابئ بالمشقات ، ولا مبالٍ بالمعاكسات ، تائقاً الى مشاهدة تلك الشجرات الخالدة التي طالما زينتها في مخيلته اقوال الكتاب والشعراء من صاحب المزامير الى احدث مؤلف ، واحاطتها بهالة من العظمة والقداسة . حتى اذا رقي هضبة بشراي لاهثاً ، وبدت له غابة الارز بقعة خضراء مسودّة في سفح الجبل الاغبر ، شعر بشيء من الكآبة خالطه ناتجاً عن عدم التناسب بين تلك الاوصاف التقليدية وحقيقة الارز . . .

« على انه يكاد لا يدخل ذاك الحمى المطمئن ، فتلتقي عليه اغصان الارز ظلها الكثيف ، حتى يحس بروعة العظمة والجمال وقد هبطت عليه فامتلكت فؤاده ، وتسلطت على جوارحه ، فحنى الرأس ، وخفض الصوت ، واستسلم لنوع من الرهبة الدينية ، اذ شعر انه حقيقة بين « اشجار الرب ارز لبنان التي غرسها »

« في مثل هذه العواطف ، دخلنا الحمى المقدس . فجلنا بين ارزاته بكل

سكون تكاد لا تطأ الثرى الا برفق، وتكاد لا تتكلم الا همساً، مشاركين في ذلك، دون انتباه، تلك الطبيعة الهادئة التي لا تحرك اعاصيرها اغصان الارز الّا بتؤدة، ولا يحمل نسيمها ريح الارز الا بهبّات خفيفة تكتنف الانسان من حيث لا يشعر، فتحيطه بجوّ لطيف من الرائحة الزكية. هذا فضلاً عن ان ما على الارض من مسلّات الارز المتراكمة يكوّن طبقةً ليّنة يمشي عليها الزائر فلا يُسمع صوت خطواته.

«في تلك العزلة الهادئة، ينطرح الانسان مغبوطاً، كأنه وصل الى قمة امانيه ومطامحه، فيخفل عن حاجاته المتعددة، ويسلو احزانه المؤلمة، ويرتفع من محيط البشرية الضيّق بما فيه من المنافسات والمشاحنات التافهة، فينسى انه انسان، ويودّ لو اتيح له الحياة والموت في تلك الظلال الوارفة، فيردّد:

يا بني امي اذا حضرت ساعتي والطب اسلمني
فاحفروا في الارز مقبرتي، وخذوا من ثلجه كفني.

«للارز سور من الحجر يرقى الى عهد رستم باشا، احد متصرفي لبنان السابقين (١٨٧٣ ١٨٨٣) امر ببنائه على اثر ما كان من اقتطاع الاهلين حطب الارز دون شفقة، وابتذالهم ارضه المقدسة دون اعتبار. وعيّن له ثلاثة نواطير ليحرسوا الغابة من المعتدين، فيمنعوا قطع الاغصان، واشعال النار، وادخال المواشي. وكان ان البطريرك الماروني اصدر امراً بمنع الزوّار عن اقتطاع الاغصان، كل ذلك حفظاً لتلك الشجرات الباقية من الاندثار...

«ثم انتقلنا الى الجولان في الغابة، وفيها نحو الاربع مئة جبار تراوح اعمارهم بين ثلاثة آلاف ومئتي سنة. اما شيوخ الجبابرة فاثنتا عشرة شجرة لاغير تحمل في جزوعها الضخمة تاريخ بلادنا منذ عهد الفينيقيين، وتبقى على كرّ الايام مثال العظمة ورمز الخلود...

«وهكذا جلنا في بلاد بشراي، مهد الطائفة المارونية، من البلدة نفسها الى نبع قاديشا، الى واديه المقدس، الى الحبساء والنساك والرهبان، الى الارز الخالد. وفي كل ذلك تتوافر لدينا المعلومات التقليدية يختلط تاريخها بالاساطير وتتسمو به الى درجة عالية من التأثير والجمال...» (انتهى)